التاريخ فى سير أبطاله

أحمد عرابى

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح
وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف

وسئل رئيس الوزراء عن وجهة نظره فى دعوة المجلس دون الرجوع إلى الخديو، فكان جوابه أن الخديو قد نشأ الخلاف بينه وبين وزرائه بحيث لا يمكن الاتفاق بينه وبينهم، ولذلك فقد دعى المجلس دون مراعاة سلطته فى هذا، ثم قال: « إن شكوانا من سموه هى أنه سلك مسلكاً يقضى على استقلال مصر وكثيراً ما فعل ذلك دون مشاورة وزرائه »[1]

والحق أن توفيقا كان يود التخلص من هذه الوزارة بأى ثمن وفيها البارودى الطامع فى عرشه، وعرابى زعيم الحركة القومية الذى يسير بطبيعة حركته فى طريق تعتبر عند الخديو طريق الضلال والعصيان وتعد كل خطوة فيها ثورة وتكبر، وأى شىء آلم فى نفسه من أن يرى فلاحاً من أبناء هؤلاء الذين ما خلقوا إلا للفأس والطاعة العمياء يتربع فى كرسى الوزارة ويتكلم إذ يتكلم باسم الأمة ويقبل ما يقبل أو يرفض ما يرفض باسم الأمة ؟

ولقد عاب كثير من الناس على البارودى وعرابى مسلكهما تجاه الخديو فى تلك الأزمة، وحجتهم أن الواجب كان يقضى على البارودى أن يترك الحكم ما دام قد استحكم الخلاف بينه وبين الخديو، ولقد يبدو هذا الكلام وجيهاً لمن ينظرون فى النتائج دون تمحيص للمقدمات، أما الذين لا يصدرون حكماً إلا عن تفحص وفهم فلا يذهبون مذهب هؤلاء، ولا يقيسون قياسهم

وليست المسألة دقيقة على الأفهام حتى تتشعب فيها وجوه الرأى، فحسب هؤلاء العائبين على الوزارة مسلكها أن يذكروا أن الخديو كان يعمل بوحى من الإنجليز وعلى ذلك فإجابته إلى مبتغاه لن تكون إلا تسليماً لأعداء البلاد، الأمر الذى لن يقبله وطنى ؛ ولو أن الأمر كان خلافاً بين الخديو ووزرائه، وكان الخديو يريد وجه الوطن لكان من السهل جداً أن يحتكم إلى الأمة ممثلة فى مجلسها النيابى ويجعل له، عن طيب خاطر، القول الفصل فى الخلاف

وهل كان يحمد من الوزارة أن يكون قصارى جهدها الاستقالة من الحكم وإنها لفى موقف جهاد ومقاومة لدسائس الدساسين ومطامع الطامعين ؟ كلا . بل إنا لنرى استقالتها فى تلك الظروف ضرباً من الفرار ومثلاً من أبلغ أمثلة الضعف، وعلى الأخص إذا سلمنا بموقف الخديو من القضية كلها على النحو الذى نذكره، والذى لن نجد دليلاً على صحته أبلغ مما ذكره لورد كرومر فى كتابه حيث يقول : « إنه بين للسير أدوارد ماليت فى يوم ٦ مايو أنه يؤثر أن تفقد مصر بعض امتيازاتها على يد الباب العالى وتعود إليها السلطة المنظمة على أن تبقى فى مثل تلك الفوضى » ومعنى هذا أنه كان يريد أن تطلق يده فى مصر فيحكمها كما يشاء ولا عبرة فى سبيل الوصول إلى هذا الغرض بمبلغ ما تفقد مصر مما حصلت عليه من امتيازات خطت بها خطوات واسعة نحو الاستقلال

وإن الذى يرى هذا الرأى لن يكون احتكامه إلى قواعد الدستور إلا ضرباً من المغالطة، فإذا كان الدستور يقضى باستقالة الوزارة إذا تعذر التفاهم بينها وبين الخديو فلن يكون ذلك إلا على أساس احترام الخديو لذلك الدستور فى جملته وتفصيله . . . وما أخطر أن يتخذ الدستور أداة لطرف منهما بالتحايل عليه بما ليس فيه . . .

وقفت وزارة البارودى لا تتحول ولا تلين فكان موقفها هذا ثورة لا شبهة فيها، ثورة قومية كأروع وأجل ما تكون الثورات القومية، وهو موقف تراه جديراً بالإعجاب والتقدير، وما نحسبه

(١) Cromer — Modern Egypt

لو كان فى بلد غير بلدنا إلا كان يعد من المواقف المشهودة التى تذكر فى مواطن الفخر والمباهاة

وكانت الوزارة قوية بادئ الأمر لأنها كانت معتزة بالنواب وإجماعهم على الأخذ بناصرها ، ولكنها نظرت فإذا بينهم تهامس وفى صفوفهم إسرار وإعلان ، وإذا كبيرهم سلطان يدعوهم إلى الحكمة والروية ... وكم تحمل على الحكمة والروية أعمال ليست منها بسبب من الأسباب ... قال سلطان باشا يومئذ للسير أدوارد ماليت : « لقد أسقط المجلس شريفاً تحت ضغط عرابى ، وإن نفس الأعضاء الذين ألحوا فى ذلك أكثر من غيرهم ـ وقد استبان لهم أنهم خدعوا ـ يتوقون اليوم إلى إسقاط الوزارة » ... ولو اطلع عرابى على الغيب يومذاك لرأى أن هذه أخف ضربة من ضربات سلطان هذا ، تلك الضربات التى سوف يسددها إلى قلب الحركة الوطنية فى ضجيج الجهاد وسكرات الاستشهاد

وانحاز فريق كبير من النواب إلى جانب الخديو ، وإن كانوا ليتظاهرون أنهم يظاهرون الوزارة ... كتب فى ذلك ماليت إلى حكومته فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو بصف الحال فى مصر أو على الأصح يصف مبلغ ما أصابته من نجاح دسائسه الإجرامية، قال : يظهر أن رئيس المجلس والنواب يميلون إلى جانب الخديو ، ولقد سألوا سموه أن يأخذ بالعفو فيصالح وزراءه ، ولكن الخديو رفض ذلك . . . ويصر سموه على رأيه ، فلن يصالح وزارة تحدثه صراحة ، وتهددته هو وأسرته ، واعتدت على القانون بدعوة المجلس إلى الانعقاد دون الرجوع إليه ، وفى القاهرة قدر غير قليل من القلق ، وكثير من الناس يغادرونها . . .

إزاء ذلك انخلع عن رئيس الوزارة عزمه ، وتزايل إصراره شيئاً فشيئاً ، حتى رأت البلاد البارودى يرفع إلى الخديو استقالته فيرتكب بذلك إثماً نعيبه عليه أشد العيب . فقد كان عليه أن يستطلع رأى النواب صراحة فى جلسة يعقدونها . فإذا ناصروه كان عليه أن يبقى فى مكانه حتى يقال ، فيحظى بشرف الإقالة ، أو ينتصر ، فيكون له فخر الانتصار . . .

لقد رفض النواب أن يجتمعوا فى مجلسهم — أى أنهم رفضوا أن يشايعوا الوزارة فى تحديها الخديو ، واجتمعوا فى منزل رئيسهم وهذه حقائق نسلم بها ، ولكنها أمور شكلية لا تمس جوهر الموضوع . فالأمر الذى كان يهم الوزارة ، هو معرفة رأى ممثلى البلاد ، وسواء لديها اجتمعوا فى مجلسهم أو فى أى مكان .

فليس ثمة من فرق بين الاجتماعين ، إلا أن هذا رسمى وذاك غير رسمى ؛ ولم يكن المجال يومئذ مجال شكليات ، وقد جرى الخديو فى مضماره الذى اختاره رغم إرادة البلاد . وهل كان نواب الشعب الفرنسى الذين التقوا فى ملعب التنس فى مستهل ثورتهم الكبرى لا يعبرون عن رأى الشعب لأنهم لم يجتمعوا فى قاعة مجلسهم؟

الحق أن البارودى قد هدم ما فعل جميعاً باستقالته هذه ، ولو أنه نال شرف الإقالة ، لكان منطقه متسقاً ، ولأضاف بذلك إلى نفسه وإلى وزارته معنى من معانى البطولة وحمل الخديو والموحين إليه وزراً جديداً يضاف إلى سابق أوزارهم !

وعجز الخديو أن يقيم فى الحكم وزارة ، فقد أشفق منها الرجال يومئذ ، وأشفق منها مصطفى فهمى باشا حين عرضت عليه رياستها عملاً باقتراح ممثلى انجلترة وفرنسا اللذين صار لهما الآن حق إسناد الوزارة إلى من يرضيان عنهم فى مصر .

وصرح الوزراء على الرغم من استقالة رئيسهم أنهم لا يستقيلون إلا إذا كان ذلك بأمر من مجلس النواب ، وهنا يعود عرابى فيثب إلى الطليعة ، وقد ضاق البارودى بالأمر ذرعاً ؛ فهو الذى أوحى إلى الوزراء بما فعلوا ، وقد عز عليه أن يعد الوزراء عن مناصبهم بمشيئة غير مشيئة الأمة ، وتلك خطوة أخرى تضيفها فى غبطة وفخر إلى سالف خطواته .

ووقف عرابى فى مكانه لا يتزعزع وما كان أصلبه وأشد مراسه إذا وقف فى أمر يرى أنه الحق ؛ ولقد صور المبطلون وقفته هذه أنها عودة إلى الثورة المسلحة وأنه يوشك أن يفاجئ البلاد بيوم آخر كيوم عابدين ، فما حفل كلامهم ولا خشى تهديدهم ؛ وكتبت الحكومات إلى ممثليها فى مصر أن « يرسلوا إلى عرابى فيبلغوه أنه إذا أصاب النظام خلل فسوف يجد أوربا وتركيا كما يجد انجلترة وفرنسا ضده ، وأنهم يحملونه تبعة ذلك »

وأصر ذلك الفلاح الذى لولا ما هيأته الأقدار لكان يومئذ يجيل فأسه فى حقل من حقول عربة رزنة ولا يدرى من أمر الحكم والسلطان شيئاً ؛ وظل على عناده يكشف عن طيب عنصره وكرم معدنه فيفهم من يريد أن يفهم أن ذلك الفلاح الذى يجيل الفأس فى صبر وصمت فى أنحاء هذا الوادى لا ينقصه إلا العلم والحرية ليبهر العالم بعبقريته وبطولته ...

وصرح سلطان وقد أخذ يكيد للبارودى وعرابى معاً « أنه ليس من الممكن تغيير الوزارة ما دامت القوة الحربية مجتمعة فى عرابى باشا » ولم يك يبدو لسلطان أن وراء تلك القوة الحربية قوة أخرى لولاها ما قام غيرها . لم يك يدرى سلطان باشا أن هذه

القوة الحربية التي يشير إليها كانت قائمة في مصر من قبل فما ظهر أثرها إلا في يد عرابي وأنه بذلك يمتاز عن غيره من الرجال

وانتهت الأزمة بأن أشار ممثلا انجلترة وفرنسا على الخديو بأن يطرح المسائل الشخصية جانباً، وبما أن سموه لم يستطع أن يقيم وزارة جديدة فإنهم يطلبون إليه أن يجدد علاقته بالوزارة القائمة »

وبقيت الوزارة في كراسيها وانتصرت كلمة الأمة من جديد على يد ذلك الذي خرج من هرية رزنة وتلقى قسطاً من العلم في الأزهر، ثم درج بعد في مدارج الرقي فكان في نموه كالشجرة الطيبة في سموقها لا كالعليق الذي لا ينمو إلا على غيره من النبات

ولولا ذوو الأطماع من المتربصين بمصر وحرية مصر لجنت البلاد من هذا الانتصار أطيب الثمرات ولعزت بذلك كلمة الأمة حتى ما تذل بعدها ؛ ولكن مصر وا أسفاه جنت من انتصارها هذا العلقم والحنظل

وكيف كان يتسنى لمصر السلامة ووراء الخديو الإنجليز يتربصون ويكيدون ؟ لقد حق لماليت الآن أن يدعو حكومته إلى التدخل المسلح فقد حانت الساعة وواتت الحجة، ولن يهم انجلترة أن تكون هي المدبرة لكل ما حدث فلن يكون احتجاج الضعفاء إلا صرخة ضائعة، ولن يكون منطقهم إلا ثرثرة وشكواهم إلا تبجحاً

لم تكن في البلاد ثورة ولا خاف فيها أجنبي على حياته أو متاعه ولكن أعوان السوء صوروها يومئذ صورة منكرة انزعجت منها أوربا أشد الانزعاج، مع أن هؤلاء الكاذبين كانوا يعلمون حقيقة الأمر ويوقنون أن المسألة لا تعدو خلافاً بين الوزارة والخديو ما كان ليبلغ ما بلغه من الشدة لولا تدخلهم على ذلك النحو الأثيم

ولم تكن البلاد في مثل تلك الحال من الفوضى التي ذكرها المبطلون . وحسبنا أن نورد هنا بعض ما جاء في خطابين كتبهما عرابي باشا إلى مستر بلنت وكان ذلك في أوائل شهر ابريل أي قبل الأزمة التي نحن بصددها بنحو شهر. قال عرابي: « ونحن نرجو لانجلترة أن تكون أقوى الأصدقاء لمساعدتنا في إيجاد نظام حسن على أساس الحرية فنسير عندئذ على غرار الأمم المتمدينة الحرة . ونحمد الله فإننا سنرى قريباً نجاحك في جهودك ولهذا نعتبر وصولك سالماً لبلادك فألاً حسناً للنجاح المنتظر ... أما بخصوص النصيحة التي زودتنا بها فنحن نشكرك ونخبرك بأننا لا نقصر في حفظ النظام والهدوء لأننا نعتبر هذا من أهم واجباتنا ونؤكد لك أن كل شيء هنا هادىء ؛ فالهدوء والسلام يسودان البلاد ونحن وإخواننا الوطنيون ندافع بأقصى ما يمكننا عن حقوق جميع السكان بصرف النظر عن الأمة التي ينتمون إليها ؛ ونحن نحترم جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية ولن نسمح لأحد بمسها ما دامت أوربا تحفظ وترعى علاقاتها الودية معنا . أما عن تهديدات الماليين وأصحاب المصارف في أوربا فإننا نتقبلها بالحكمة والثبات واعتقادنا أن هذه التهديدات تعود عليهم وحدهم بالأذى وتغر الدول التي تنخدع بأقاويلهم. وغايتنا الوحيدة هي تخليص البلاد من العبودية والظلم والجهل وأن نرفع السكان إلى مركز لا يمكن فيه الاستبداد أن يعود كما كان في الأزمنة الماضية ينشر الخراب والدمار في مصر. وإن هذا الذي أكتبه إليك هو ما يفكر فيه كل مصري عاقل يحب حرية بلاده »

هذا ما يقوله عرابي وهذا ما كان يرجوه المصريون من انجلترة من عهد يرجع إلى قبيل الاحتلال . وكم تكرر في مصر من أشباه ونظائر لهذا الموقف ! وكم جاء مثل هذا الكلام على ألسن غير لسان عرابي ولكنا نحجز القلم عن الانجاه إلى غير ما نحن فيه فالسياسة الانجليزية في مصر هي هي وإن تغير الزمن واختلفت في موضع الزعامة الرجال

وقد أكد عرابي هذه النيات في كتابه الثاني، ومما جاء فيه: « ونحن ميالون أشد الميل إلى التفاهم عن المصالح المتبادلة بيننا وبين الدول المرتبطة بنا. وليس للدول ذوات المصالح في بلادنا من سبيل للانتفاع بعقودهم ومعاهداتهم إلا إذا كانت الصداقة التي بيننا وبينهم وثيقة . فإذا قطعت هذه الصداقة فالضرر لن يعود علينا وحدنا بل يعود على الدول أيضاً وبخاصة انجلترة. وليس هناك سياسي كبير الإدراك إلا ويفهم قيمة المنافع التي تعود على انجلترة من صداقتها لنا ومعاونتها إيانا في كفاحنا » ... وقال : « إننا قد نوينا نية صادقة على أن يكون لأمتنا مركز بين الأمم المتمدينة بنشر المعارف في البلاد والمحافظة على الاتحاد والنظام والقضاء بالعدل بين الناس أجمعين . ولا يمكن لشيء في العالم أن يردنا عن قصدنا قيد شعرة فلن نخشى الوعيد أو التهديد ولن نخضع إلا لحكم الصداقة التي نقدرها ونكبرها — أما عن الهدوء في مصر فنخبرك أنه ليس هناك أي قلق ، ونحن الآن نحاول أن نمحو الآثار السيئة التي تركتها لنا الحكومة السالفة »

ويذكر مستر بلنت أن الشيخ محمد عبده كتب إليه في ذلك الوقت مثل ما كتب عرابي يؤكد له قيام النظام والسلام في مصر يقول : « وإن الخلق العظيم الذي يمتاز به الشيخ محمد عبده ثم هذا المركز السامي الذي يملأه الآن في مصر وهو منصب الإفتاء